شؤم المعاصي

إن الْحَمْدُ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ وَنَعُوذُ بِالله مِنْ شُرُورِ أنفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا مَنْ يَهْدِهِ الله فَلا مُضِلَّ لَهُ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلا هَادِيَ لَهُ وَأَشْهَدُ أن لا إِلَهَ إلا الله وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ وَأن مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

من المسائل الخطيرة والعظيمة في الوقت نفسه مسألة المعاصي وشؤم تلك المعاصي فالكل غير سالمٍ منها

وعلى العبد ابتداءً أن يُدرك أن عواقب المعاصي سيئة، وأنه لا يوجد بين الإنسان وبين ربه نسب، فالله عز وجل لا يُجامل أحد ولا يُحابيه فليس بينه وبين أحدٍ من خلقه نسب فهو الواحد الأحد، ولو فهِم المرء ذلك لأدرك أن كل ما يفعله سيُحاسب عليه وسيؤاخذه الله بما اقترف من معاصي في دُنياه

_قال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (40)﴾[العنكبوت]

وهذا يعني أن كل إنسان يُذنب ذنبًا ولم يتب منه فإن الله سيُعاقبه عليه إما في الدنيا وإما يؤجل العقاب إلى الآخرة وتلك هي الطامة الكبرى.

عن مالك بن دينار رحمه الله قال: ما ضُرب عبد بعقوبة أعظم من قسوة القلب.

وقال أيضاً رحمه الله: إن لله تعالى عقوباتٍ، فتعاهَدوهنّ من أنفسكم في القلوب، والأبدان، وضنكٍ في المعيشة، ووهنٍ في العبادة، وسخطةٍ في الرزق.

أي أن الله عز وجل قَدَّرَ عقوبات على الذنوب التي يُصيبُها العباد ولابد من أن يُحاسبهم عليها ولكن قد يُمهل الله العبد أو يُعاقبه مباشرةً بعد إصابة الذنب، ومَن لا يملك العلم يظُن أنه عندما يُذنب ولا تأتيه العقوبة ويُذنب ولا يتعسَّر في حياته يظُن هذا أن الله غفورٌ رحيم وأن الأمور ستمُر من غير عقاب،

فكُلنا على علم بما تصنعه أيدينا(الخير_الشر) ومَن يدعي الجهل بالذنب لم تَعُد حُجته مقبولة إلا بالنسبة لأمور بسيطة جدًا في المسائل الفقهية ولكن الجميع يعرف كل المسائل العِظام وكل المعاصي.

اعتقاد أن الله غفورٌ رحيم والتمادي في الذنوب على هذا الأساس هو منتهى الجهل لماذا؟ لأن الله سبحانه يُمهل الظالم والعاصي حتى إذا ما أخذه كان أخذه له هو أخذ العزيز المُقتدر، فما من أمرٍ سيمُر من غير أن يكون له ثواب أو عقاب، وتأخير العقوبة قد يكون فترة إمهال للإعذار أو الإنذار عسى أن يتوب الإنسان ويعود ويرجع إلى ربه سبحانه فإن لم يحدُث ذلك فإن العقوبة ستنزل في الدنيا قبل الآخرة

قال ابن القيم – رحمه الله : أصُول الْخَطَايَا كلهَا ثَلَاثَة:
_الْكبر وَهُوَ الَّذِي أصار إِبْلِيس إِلَى مَا أصاره
_والحرص وَهُوَ الَّذِي أخرج آدم من الْجنَّة
_والحسد وَهُوَ الَّذِي جرأ أحدا بني آدم على أَخِيه

أي أن المعاصي والذنوب تنقض على ابن آدم من ثلاثة أبواب وهي (الكبر_الحرص_الحسد).

فإما كبرًا : كما فعل إبليس عندما تكبر عن أمر الله ولم يسجد لآدم فكانت النتيجة هي الطرد والإبعاد.

والمقصود بالكبر هنا هو: الكبر على أوامر الله وليس تعالي شخص على آخر لأنه يتميز عنه في صفةٍ ما(فهذا نوعٌ آخر وله عقوبته) ولكن الحديث هنا عن الكبر الذي يُهلِك صاحبه بتعاليه عن أوامر الله، فالأمر يأتي من الله سبحانه والمسألة واضحة جلية فنسمع ونعلم ونُدرك الخطأ ولكن مع كل هذا نُصِر على ارتكاب المعاصي(تَكَبُرا على أوامر الله) وهذا هو أول أصل من أصول الخطايا والمعاصي

والأصل الثاني : **هو الحرص**

الحرص على الدنيا والحرص على المنصب والمكانة الاجتماعية والمال والجاه، والحرص أيضًا هو الذي أدى إلى خروج آدم من الجنة فقد كان حريصًا على أن يعيش خالدًا مُخلَّدا في الجنة فاستذله الشيطان وأوهمه أن أكله من الشجرة سيكون سببًا في خلوده في الجنة، فلا ينبغي الحرص على الدنيا أو المنصب أو أي شيء آخر لأنه ربما يكون سببًا في هلاك الحريص عليه.

أما الأصل الثالث: **فهو الحسد**

فالحسد أصل من أصول الخطايا الذي انتشر وبشدة بين المسلمين وأصبح مرضا واضحا جليا في فئة لا يُستهان بها من المسلمين، فالكثيرين يحسدون

بعضهم البعض، فأهل الدنيا يحسدون بعضهم على الدنيا وأهل الدين يحسدون بعضهم على الدين والأمر في كلا الاتجاهين من المُهلكات.

فَمن وقِي شَرُّ هَذِه الثَّلَاثَة فقد وقى الشَّرُّ فالكفر من الْكبر والمعاصي من الْحِرْص وَالْبَغي وَالظُّلم من الْحَسَد.

أما البغي فهو يعني: تجاوز الحد والاستطالة بغير الحق.

شخص يحسد آخر لأنه يرى أن لديه نعمة هو محروم منها ولهذا فالقلب غير راضٍ عن ذلك كما أنه لا يقدر على استيعاب أن فضل الله ونعمه يؤتيها مَن يشاء من عباده فيبغي عليه أي يتجاوز الحد معه ومن صور ذلك اتهامه له بشيء أو الحديث عنه بما ليس فيه (يغتابه) أو ينتظر أي فرصة لينتهزها وينتقص من قدره وتلك مصيبة، والحسد هو داء اليهود وإبليس وهو احتراق القلب عند رؤية نعمة عند أحد وافتقاد صاحب هذا القلب لتلك النعمة وقد غفل هذا الحاسد عن أن هذا هو رزق الله يؤتيه مَن يشاء سبحانه مُقسِّم الأرزاق.

وقد كان السلف دومًا يُحذرون من شؤم المعاصي.

حتى أن البعض منهم قال: المعاصي بريد الكفر كما أن القبلة بريد الجماع والغناء بريد الزنا والنظر بريد العشق والمرض بريد الموت.

فمعصية بعد معصية بعد معصية قد تُوصِلُ الإنسان إلى الكفر لماذا؟

لأن المعاصي تبدأ بالشهوات ثم شُبهات تضرب القلب ومن الممكن أن يخرجِ الشخص عن دينه، إذن فالمعاصي هي المُوصِل إلى الكفر إن لم يتدارك الله سبحانه عبده برحمته وعفوه

كما أن القبلة بريد الجماع : فمتى وصلت العلاقة المُحرمة بين رجل وامرأة إلى درجة تقبيله إياها فلا مفر من وقوع الجماع بينهما

والغناء بريد الزنا: فلماذا يُعد الغناء بريدًا للزنا ؟ لأن الغناء يُثير الكامن أي الشهوات الكامنة ومن ثمَّ قد يصل الأمر بالسامع إلى الزنا

والنظر بريد العشق: تُرى ما هي بداية عشق الرجل لامرأة أو العكس؟ ألم تكن البداية بنظرة ثم تلا ذلك خطوات أوصلت صاحبها إلى عِشق مَن كان ينظر إليها إذن البداية كانت نظرة

والمرض بريد الموت: أي أن في المرض رسالة إلى المريض حتى ينتبه لأن الموت قادم

أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ كُنَاسَةَ، قَالَ: سَمِعْتُ عُمَرَ بْنَ ذَرٍّ، يَقُولُ: " آنَسَكَ جَانِبُ حِلْمِهِ فَتَوَثَّبْتَ عَلَى مَعَاصِيهِ؟ أَفَأَسَفَهُ تُرِيدُ؟ أَمَا سَمِعْتَهُ يَقُولُ: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الزخرف: 55] "**العقوبات لابن أبي الدنيا**(72).

فما السبب الذي يجعل المرء يتجرأ على معصية الله؟ هل السبب هو حلم الله على العاصي وعدم معاقبته إياه فجعله يتمادى في غيه ؟ أم أن السبب هو انتظار نزول المصائب؟

وفي الآية: {فلما آسفونا}: أي أغضبونا، فقد أغضبوا الملك ولما حدث هذا نزل العقاب، إن الله عز وجل يحلم ويحلم إلى أن يشاء شيئًا آخر حيث يأتي الانتقام

عن محمَّد بن واسع: "الذنب على الذنب يميت القلب".

قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (14)﴾[المطففين]

فيظل الشخص يُذنب مرة بعد مرة ومرات بعد مرات فيموت القلب.

- عواقب المعاصي على القلب:

1-ضرر الذنوب والمعاصي على القلب.

تأثير المعاصي والذنوب على القلب يُشبه تمامًا تأثير السم على البدن، فلو أن إنسان تناول طعامًا فيه سمًا فما الذي سيحدث له؟ سيحدث الضرر البالغ للبدن وكذلك الذنوب تضُر القلوب وتُفسدها وتؤدي إلى موتها كما يموت الجسد حين يأكل صاحبه طعام به سم ولا يُسعفه أحد.

لابد أن ينتبه الجميع لهذه الجزئية لماذا؟ لأن القلب هو محل نظر الرحمن

قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (88) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (89)﴾[الشعراء]

عَنْ عَامِرٍ، قَالَ: سَمِعْتُ النُّعْمَانَ بْنَ بَشِيرٍ، يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: "الحَلاَلُ بَيِّنٌ، وَالحَرَامُ بَيِّنٌ، وَبَيْنَهُمَا مُشَبَّهَاتٌ لاَ يَعْلَمُهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَمَنِ اتَّقَى المُشَبَّهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ: كَرَاعٍ يَرْعَى حَوْلَ الحِمَى، يُوشِكُ أَنْ يُوَاقِعَهُ، أَلاَ وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، أَلاَ إِنَّ حِمَى اللَّهِ فِي أَرْضِهِ مَحَارِمُهُ، أَلاَ وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً: إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلاَ وَهِيَ القَلْبُ"

أخرجه البخاري(52)، أخرجه مسلم(1599)

ومن عواقب الذنوب أيضًا،

2- الوحشة في القلب.

فيجد العبد في قلبه وحشة بينه وبين الله عز وجل فلا توازيها ولا تًعادلها أي لذَّة وهذا إن كان القلب حيًا، أي أن القلب إذا كان حيًا وعوقِب هذه العقوبة(الشعور بالوحشة بينه وبين الله) فسيشعُرُ بها

فما هو المقصود بهذه الوحشة: لو أن شخصًا يريد أن يرفع يده للدعاء فلا يعرف كيف يدعو، ولو أراد أن يستغفر فإنه يجد قلبه ساهٍ غافل، ولو أنه أتى بكتاب الله ليقرأ فيه فإنه سُرعان ما يتذكر أشياء فيتركه وينشغل بهذه الأشياء، تلك هي الوحشة التي تكون بين العبد وربه حيث عدم الأُنس بالله سبحانه، فهو لا يستمتع بالطاعة، هذه عقوبة تنزل على العباد بما في ذلك البعض من الملتزمين والكثيرين لم ينتبهوا لها

ولكن لماذا يشعر القلب الحي بهذه العقوبة ؟ لأن القلب الميت إذا نزلت عليه هذه العقوبة فلن يشعر بها أو يلتفت لها، فالميت إذا فعلنا بجسده الأفاعيل هل سيشعر بشيء بالطبع لن يشعر بأي شيء وكذلك القلب الميت لا يشعر أنه محروم من حلاوة الأُنس بالله

3- الظُلمة في القلب.

فيسود القلب ويُصبح كالليل البهيم وتملأه الحِيرة فلقد أنطفأ نور الطاعة ومُلئ القلب بالظلمة، ولكن ما المقصود بحيرة القلب ؟ حيرة القلب تعني عدم القُدرة على التمييز بين الحق والباطل، الصحيح والخاطئ، هل هذا

العالم متشدد ويُحاول تعقيد الأمور أم أن هذا هو شرع الله وتلك أوامره التي يجب الخضوع والانقياد لها، هذه الحيرة وذلك التخبط السبب فيهما هو ظلمة القلب، فظلمة قلب العاصي تجعله على (سبيل المثال) يذهب إلى هذا المجلس ويحكم على مَن فيه بالطيبة والاعتدال ثم يذهب إلى آخر فيحكم على مَن فيه بالتشدد وتعقيد الأمور ثم يذهب إلى مجلس ثالث فيحكم بخطأ المجالس الأخرى وهكذا فهو لا يستطيع أن يصل إلى الحق،

وظُلمة القلب درجات وتزيد الدرجات مع كثرة الظلمة واشتدادها،

وعلى العكس فقد قيل: أن للحسنة ضياءً في الوجه ونورًا في القلب وسعة في الرزق وقوة في البدن ومحبة في قلوب الخلق

ضياءً في الوجه: فالوجه مستنير ولو لم يكن الشخص جميلًا

ونورًا في القلب: والقلب مستنير، يمشي ويهتدي بنور من عند الله فلا حيرة ولا تخبط، بل لديه القدرة على معرفة الصحيح من الخاطئ ولو أن قدمه ذلت في خطأ ما فإنه يكون على علم بما وقع فيه من ذنب وبالتالي فإنه يتوب ويعود إلى طريق الحق فالأمر واضح بالنسبة له

ولا يظن أحد أن أهل الطاعة معصومون من الوقوع في المعاصي بل أن لديهم معاصي فهم بشر مثل الآخرين ولكنهم عندما يخطئون سُرعان ما ينتبهوا لهذا الخطأ فيتداركونه ويستغفرون ربهم كي يغفر لهم أخطائهم

وسعة في الرزق: ومفهوم الرزق مفهوم واسع ولهذا فإن أمره لن يكون مُقتصِرًا على كثرة المال، فقد يكون المال قليلًا ولكن فيه بركة ويمكن أن يكون كثيرًا ولكنه معدوم البركة(وهذا أمر ملاحظ في الكثير من البيوت) كما أن الرزق يشمل الرزق في الصحة والرزق في الأولاد

قوة في البدن: وقوة البدن هذه ليست مرتبطة بسن الشخص أو بصحة ومرض، فقد يكون الشخص كبيرًا في السن أو مريضًا ولكنه يفعل من الأمور ما لا يُصدق فهو بالمقاييس المعتادة للناس لا يستطيع فعل ذلك إلا أن نور الطاعة ألبسته ثوب القوة في البدن

ومحبة في قلوب الخلق: فأهل الطاعة يُحبهم الناس ولو لم يعرفوهم عن قُرب ولكنهم سمعوا بحالهم، فذلك هو حبٌ من الله تبارك وتعالى قذفه في قلوب العباد تجاه هؤلاء الطائعين العاملين.

وللسيئة سوادًا في الوجه، وظلمة في القبر والقلب ، ووهنا في البدن ، ونقصا في الرزق ، وبغضة في قلوب الخلق.

سوادًا في الوجه: فيسود الوجه من الذنوب حتى لو كان صاحبه جميلًا

وظُلمةً في القبر والقلب: فالقبر مظلم ويبدأ عذاب العاصي بمجرد دخوله وكذا القلب يملأه السواد.

ووهنًا في البدن: وهذا الأمر واضح جلي جدًا والوهن يعني التعب والضعف، فيستثقل الصلاة والعبادات والطاعات لأن البدن ضعيف لا يتحمَّل الطاعة أما وقت المعاصي فلا وهن ولا تعب.

ونقصًا في الرزق: عَنْ ثَوْبَانَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيُحْرَمُ الرِّزْقَ بِالذَّنْبِ يُصِيبُهُ، وَلَا يَرُدُّ الْقَدْرُ إِلَّا بِالدُّعَاءِ، وَلَا يَزِيدُ فِي الْعُمُرِ إِلَّا الْبِرُّ» **مسند أحمد(22386)،صحيح ابن حبان(872)، السنن الكبرى للنسائي(11775)،**

وبغضة في قلوب الخلق: فالخلق يبغضون العاصي حتى لو كانوا يُظهرون له خلاف ذلك.

ومن شؤم المعاصي أيضًا،

4- ذِهاب الحياء من القلب.

ولو ذهب الحياء من القلب لأصبح صاحبه في مأساة

عَنْ رِبْعِيّ بْنِ حِرَاشٍ، حَدَّثَنَا أَبُو مَسْعُودٍ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلاَمِ النُّبُوَّةِ الأُولَى: إِذَا لَمْ تَسْتَحْيِي فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ" **أخرجه البخاري(6120).**

فهل يُفهم من هذا إباحة المعصية ؟ بالفعل ليس هذا هو مقصود الكلام ولكنه يعني أن انعدام الحياء والخوف من الله يرفع الحواجز بين العبد وبين المعصية فلا مانع له من الوقوع فيها، فالإنسان إن لم يستحِ من الله أو يخاف من العقوبة عند المعصية فإنه يحتاج إلى أمور كثيرة حتى يتم إصلاحه.

يقول معروف بن واصل، قال: سمعت محارب بن دثار يقول: إن الرجل ليذنب الذنب فيجد له في قلبه وهنًا .

فبعد ذِهاب الحياء يتواجد الوهن في القلب، لأن من العقوبات ما يُضعِف القلب وذلك يكون بمنع الشخص من السير إلى الله،

_وهذا أيضًا يعني:أن يظل الشخص في مكانه فلا يستطيع الحركة، ولو استطاع أن يتحرك فلن يدوم ذلك طويلًا لأنه سرعان ما ينتكس ولا يستمر في سيره على الطريق وهذا نتيجة ضعف القلب،

فالأصل أن الناس يسيرون إلى خالقهم بقوة قلوبهم لا بقوة أبدانهم

_قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (88) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (89)﴾[الشعراء]

فالإنسان يحتاج إلى قلبٍ قوي خاليًا من الوهن، فالقلوب الضعيفة لا تستطيع السير ولو استطاعت ذلك فلن يدوم هذا فإذا ما أدركت مواسم الطاعات فلن يتسنى لها أن تنال منها الكثير، كل هذا الضعف أو الوهن جاء نتيجة تراكم المعاصي فيظل في حالة من التردي والانتكاس

لقد بدأ الأمر بمرض القلب ولما مرض أصابه الوهن وهذا الوهن حال بين القلب وبين الوصول إلى الله لأن السير إلى الرب يكون بهذه القلوب.

من شؤم المعاصي أيضًا،

5- قسوة القلب.

قال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (13)﴾[المائدة]

فما هو المقصود بقسوة القلب؟ تعني : السماع الكثير وعدم التأثُر بهذا السماع، وهذا أمر واضح جدًا بين المسلمين ولننظر إلى أحوال الناس في الجنازة والعزاء(رجال_نساء) فالرجال يتكلمون ويدخنون وقد يعقد البعض منهم الصفقات ويُرتبون لأعمالهم إن كانوا من رجال الأعمال، وعلى الجانب الآخر نجد النساء إن كن من المستويات المترفة فإنهن يتفاخرن ويتباهين بما يرتدينه من مصوغات وملابس غالية الثمن أما المستويات الأقل فإنهن يتفاخرن أيضًا ولكن كلٌ بحسب حاله إلى جانب الحكايات والقصص وربما الانتقاد والهمز واللمز على هذه وتلك

_الشاهد: أن الموعظة من الموت لم تعُد مؤثرة كما كانت والسبب في ذلك هو القسوة في القلب، والقلب إن لم يتأثر بالموت والجنازة وحال الميت فما الذي سيؤثر فيه بعد ذلك،

تُرى ما هو السبب الذي أدى إلى الوصول إلى هذه النتيجة؟ _السبب هو كثرة الذنوب وتراكم المعاصي جعل على القلب الران(غلاف) وبالتالي فهناك حائل يمنع الوصول،

فالمواعظ تُريد الاختراق لتصل إلى القلب فلا تستطيع، وتنزل الرسائل مُتتابعة ليلًا ونهارًا من عند الله على العباد ولكن الكثيرين لا يلتفتون إليها ولا يتأثرون بها

المعاصي تمنع الرسائل من الوصول، ولا يقف الأمر على موعظة الموت فقط، فقد يسير شخصٌ في الطريق وهو مُهتم ويُفكر في أمرٍ ما فإذا به يجد شخصًا آخر عاجزًا أو مُعاقًا (تلك رسالة)، فتاة لم تُرزق بالزواج فإذا بها ترى زوج يضرب زوجته ويُهينها (رسالة حتى تحمد الله على ما هي فيه ولكنها لا تفعل فهي لا ترى) الرسائل لا تصل لأن المعاصي حجبتها ومنعتها كي لا تصل ولكنها أرسلت إلى العباد بقدر الله حتى يتعظون بها

ويحمدون ربهم إلا أن أبصارهم عميت عنها وحالت ذنوبهم ومعاصيهم بينها وبين قلوبهم فقست القلوب ولم تتأثر.

قال حذيفة بن قتادة: أعظم المصائب قسوة القلب

وقال سهل بن عبد الله: (كل عقوبة طهارة، إلا عقوبة القلب فإنها قسوة)

فأصعب وأعظم العقوبات هي العقوبات التي تنصب على القلب لأنها تُعد مأساة من ناحيتين :_

1_صاحب هذا القلب لا يرى أن قلبه مُعاقب

2_العلاج سيكون صعبًا وتلك هي طبيعة علاج القلوب

أما العقوبات الأخرى والخاصة(بالبدن أو المال) فإن أمرها هين وقد يستغفر العبد على الذنب الذي يُصيبه فيعفو الرب ويغفر ولا يُعاقب،

ولو أن المرء أدرك أنه أخطأ فاستغفر وتاب وعاد إلى ربه وعمل عملًا صالحًا لغفر الله له إن شاء،

أما إذا لم يتب العبد ذلك ونزلت عليه العقوبة من مرض أو نقص مال فإن هذا يعد سهلا بعكس عقوبات القلب.

فالقلب قاسٍ ولا يرى أنه عاصٍ مذنب، يسمع المواعظ ويعلم أنه على خطأ ولكن القلب لا يتأثر بها ومرةٍ بعد مرة وذنب بعد ذنب يحدث الانتكاس في القلب،

فما هو انتكاس القلب ؟ هو أن يرى الحق باطلًا والباطل حقًا، ويرى المعروف منكرًا والمنكر معروفًا، ويصُد عن سبيل الله ويرى أنه يدعو إلى ربه ويشتري الضلالة بالهدى،

مثال: امرأة من مستوى اجتماعي عالٍ أرادت أن تُزوج ابنها فظلت تبحث له عن فتاة من عائلة تكون في نفس المستوى(مال_مكانة_منصب) حتى إذا

ما وجدتها وبنفس المواصفات التي أرادتها تراجعت ولم تُكمِل هذه الزيجة والسبب أن أم الفتاة من الملتزمات المنتقبات، هذه المرأة ترى الحق باطلًا والباطل حقًا والمعروف منكرًا والمنكر معروفًا وهذا هو انتكاس القلب

لا يظن أحد أن هذه المرأة قد انتكس قلبها هكذا فجأة فالله عز وجل هو الغفور الرحيم الودود الحليم، فيمهل مراتٍ بعد مرات ثم يكون الانتكاس، فهذه المرأة بدلًا من أن تفرح لأنها وجدت لابنها زوجة ربتها أم منتقبة ملتزمة أي أنها شريفة عفيفة علمتها قول الله وقول رسوله ρ رفضت إتمام الزواج، ألا تدري أن رفضها لهذه الملتزمة وبحثها عن النقيض من هذه الصورة يجعل الابن يأخذ فتاة من بيت فاسد ربما تكون غير وفية له فتُصاحبُ هذا وتتكلم مع هذا، الانتكاس جعلها لا تهتم إلا بالصورة التي أرادتها وحتى لو لم توجد أخلاق فلا مانع عندها،

لقد غطى الران على قلبها نتيجة الذنب على الذنب وعفو الله عنها مراتٍ ومرات، ورسائل الله الكثيرة وعدم الاستجابة لها، فوصلت هذه المرأة إلى مرحلة من الانتكاس جعلتها ترفض الدين وأهله والملتزمين بتعاليمه وترفض الفتاة التي تربت في مكان شريف، وقد كانت هذه هي أعظم نعمة يتوجب على الأم أن تسأل عنها قبل المال والجمال والمنصب حين تبحث لابنها عن عروس، لكنه انتكاس القلب والعقل معًا

ويشتري الضلالة بالهدى: فيرى هذا الشخص أن الضلال هو الهدى وإذا ما أراد أحد أن يُوجهه إلى طريق الهدى فإنه لا يقتنع أن هذا هو الهدى ولكنه يرى الضلال هو الهدى ولكنه يرى الأمور على عكس الحق والصورة على غير حقيقيتها ولذلك فهو لا يتبع إلا هواه حتى لو زعم أنه مُحب لربه ومولاه فهو كاذب فكيف لقلب تملأه كل هذه الضلالات ثم يدَّعي أنه مُحب ومُتبع

عَنْ حُذَيْفَةَ، قَالَ: كُنَّا عِنْدَ عُمَرَ، فَقَالَ: أَيُّكُمْ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَذْكُرُ الْفِتَنَ؟ فَقَالَ قَوْمٌ: نَحْنُ سَمِعْنَاهُ، فَقَالَ: لَعَلَّكُمْ تَعْنُونَ فِتْنَةَ الرَّجُلِ فِي أَهْلِهِ وَجَارِهِ؟ قَالُوا: أَجَلْ، قَالَ: تِلْكَ تُكَفِّرُهَا الصَّلَاةُ وَالصِّيَامُ وَالصَّدَقَةُ، وَلَكِنْ أَيُّكُمْ سَمِعَ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَذْكُرُ الَّتِي تَمُوجُ مَوْجَ الْبَحْرِ؟ قَالَ حُذَيْفَةُ: فَأَسْكَتَ الْقَوْمُ، فَقُلْتُ: أَنَا، قَالَ: أَنْتَ لِلَّهِ أَبُوكَ قَالَ حُذَيْفَةُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا، فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا، نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا، نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ [ص:129]، حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ، عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، وَالْآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًّا كَالْكُوزِ، مُجَخِّيًا لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا، وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا، إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ»، قَالَ حُذَيْفَةُ: وَحَدَّثْتُهُ، «أَنَّ بَيْنَكَ وَبَيْنَهَا بَابًا مُغْلَقًا يُوشِكُ أَنْ يُكْسَرَ»، قَالَ عُمَرُ: أَكَسْرًا لَا أَبَا لَكَ؟ فَلَوْ أَنَّهُ فُتِحَ لَعَلَّهُ كَانَ يُعَادُ، قُلْتُ: «لَا بَلْ يُكْسَرُ»، وَحَدَّثْتُهُ «أَنَّ ذَلِكَ الْبَابَ رَجُلٌ يُقْتَلُ أَوْ يَمُوتُ حَدِيثًا لَيْسَ بِالْأَغَالِيطِ» قَالَ أَبُو خَالِدٍ: فَقُلْتُ لِسَعْدٍ: يَا أَبَا مَالِكٍ، مَا أَسْوَدُ مُرْبَادٌّ؟ قَالَ: «شِدَّةُ الْبَيَاضِ فِي سَوَادٍ»، قَالَ: قُلْتُ: فَمَا الْكُوزُ مُجَخِّيًا؟ قَالَ: «مَنْكُوسًا»أخرجه مسلم(144)

يقول: تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا: رؤية الفتنة يكون بالعين فما هو دخل القلب هنا ؟ لأن العين إذا رأت فإن الأمر يدخل على القلب مباشرةً، فلو أن العين رأت شيئًا حرامًا فإنه سيُطبع في القلب مباشرةً، ولذلك قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (تعرض الفتن على القلوب وليس على العيون) بالرغم من أن رؤية الفتن تكون بالعين ولكنها عُرضت على القلب لا العين فأمرضته.

عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ:

الصَّفَا: هُوَ الْحَجْرُ الْأَمْلَسُ الَّذِي لَا يَعْلَقُ بِهِ شَيْء.

_فمهما أُلقي عليه من ماء فلا تعلق به ولا يُخزّنها ولكن كل ما يفعله هو أنه يُغسل بالماء فيكون نظيفًا، وكذلك القلب السليم الأبيض إذا ما تعرَّض للفتن فإنها لا تضره بل على العكس فإنها تُنقيه وكلما زاد ابتلائه كلما ازداد علوًا وارتفاعًا وارتقاءً وقُربًا من الله،

وَالْآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًّا كَالْكُوزِ، مُجَخِّيًا لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا، وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا، إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ:

الرُّبْدَة: لَوْن أَكْدَر , وَمِنْهُ (اِرْبَدَّ لَوْنُه) إِذَا تَغَيَّرَ وَدَخَلَهُ سَوَاد

الأسود المربد: هو الذي ساده السواد ومعه القليل من البياض

كَالْكُوز مُجَخِّيًا : قَالَ ابْن سَرَّاج: لَيْسَ قَوْلُهُ كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا تَشْبِيهًا لِمَا تَقَدَّمَ مِنْ سَوَادِهِ , بَلْ هُوَ وَصفٌ آخَرُ مِنْ أَوْصَافِهِ , بِأَنَّهُ قُلِبَ وَنُكِّسَ حَتَّى لَا يَعْلَقَ بِهِ خَيْرٌ وَلَا حِكْمَة.

أي الكوز المقلوب المُنكَّس إذا أُفرغ فيه شيء هل يبقى فيه أم أنه سينسكب ويسقط خارجه، وكذلك القلب المنتكس الأسود الذي أُشرِب الفتن لا يبقى فيه شيء أبدًا فلا يعرف معروف ولا يُنكر منكر إلا ما أشرب من هواه: أي لا يصح عنده إلا ما وافق هواه.

6- الطبع على القلب.

قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (14)﴾ [المطففين].

والمقصود هو تتابع الذنب بعد الذنب

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "إِنَّ العَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً نُكِتَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، فَإِذَا هُوَ نَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ وَتَابَ سُقِلَ

قَلْبُهُ، وَإِنْ عَادَ زِيدَ فِيهَا حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبَهُ، وَهُوَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ ﴿كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ .سنن الترمذي(3334)،السنن الكبرى للنسائي(10179)،صحيح ابن حبان(930).

وفي الحديث بيان للعلاج من الذنوب: فإذا أقلع وترك وتاب واستغفر رجع القلب نقيًا صافيًا كما كان، فمَن أذنب ذنبًا فعليه أن يتوب إلى ربه ويعترف بضعفه ويُعاهد ربه على أن لا يعود إليه مرة أخرى ويستغفر قدر استطاعته وإن شاء الله تُقبل توبته وعليه أيضًا أن لا يؤجل الاستغفار والتوبة أو أن يستهين أو يستهتر بوقوع الذنب منه لأن ذلك مصدر خطورة أما حين يتألم لوقوع الذنب منه ويعرف أن هذه الذنوب ستؤثر على القلب فإن هذا سيكون دافع له حتى يقوم ويُسرع إلى التوبة والاستغفار ومن ثمَّ لا تعلو الذنوب على القلب ويحدث ألران الذي يمكن أن يُغطي على القلب، ومتى فعل المرء ذلك فلن يبقى ألران على القلب لأن الذنوب تؤثِر،

أما إذا تاب واستغفر ولو استطاع أن يُبادر إلى القيام بعمل صالح (صلاة_صدقة_غير ذلك من الأعمال الصالحة) فعليه أن يفعل حتى لا تُنكت في القلب نكتة سوداء، فالواجب أن يظل القلب أبيض صافيًا.

– عواقب الذنوب على دين العبد:

1- حرمان الطاعة.

فكم من إنسان كان مستقيمًا ومجتهدًا ويعمل الكثير من الطاعات أي أنه كان على درجة لا بأس بها من أعمال الخير إلا أنه فجأة يجد حاله قد انتكس حُرم الطاعة فيثقل بدنه عن أداء الطاعة ويحتج بأنه مُرهق من كثرة

الأعمال الدنيوية أو مريض، ولكن تلك حجج واهية زائفة لأن المعاصي هي التي تحبس الجسد عن أداء الطاعات (صلاة الفجر)

_وقد كان الصحابة رضي الله عنهم يعملون ويتحملون ويعانون في حياتهم وأعمالهم أضعاف أضعاف ما نُلاقيه نحن الآن إلا أنهم كانوا يقيمون الليل الساعات الطوال فيقفون بين يدي الله وليس مجرد القيام لصلاة الفجر

_إذن نوم الناس عن الصلاة لا لتعبهم بل لذنوبهم، مَن ينام عن صلاته مذنب منعته ذنوبه عن الوقوف بين يدي ربه

_ وقياسًا على ذلك انعدام التوفيق، فيجد الشخص مَن حوله يُسارعون لنيل المكانة وطرق أبواب الخير في الدين إلا أنه مازال مكانه لا يتحرك والعمر يمضي وهو لا يُحصِّل أي شيء، فأين هو من أهل الخير وأهل الصلاح ؟ الأعمال ضعيفة جدًا السبب في ذلك هي الذنوب التي حُرِم العبد بها من أداء الطاعات وتحصيل الخير

_وقال الثوري : حرمت قيام الليل خمسة أشهر بذنب أذنبته قيل وما ذاك الذنب قال رأيت رجلاً يبكي فقلت في نفسي هذا مراء

_يسمع أحد الجالسين أمرٍ كهذا فيقول أنا لا أترك قيام الليل مطلقًا فيظن أنه أفضل فهل هذا يصح؟

_أنت أيها السامع قد لا تكون ممن يتركون قيام الليل ولكن اعلم أن العبد كلما كانت له درجة عند الله فإن العقوبة تنزل عليه ومع انعدام الدرجة تقل العقوبة

_مثال: شخص يقيم الليل ومستقيم ووصل إلى درجة عالية في الدين كيف يكون شكل عقابه؟ مَن كان حاله هكذا يكون عقابه بحرمانه من الطاعة

_أما مَن كان في بداية الطريق أو من أهل الدنيا فإنه مُعاقب في الأساس بحرمان الطاعة ولكنه لا يرى ذلك بالإضافة إلى عقاب آخر يكون في دنياه

التي أحبها وهذا الذي يشعر به، وهذا الأخير أيضًا فيه خير فقد أنزل ربه عليه الابتلاء حتى يتوب ويفيق لما هو فيه ويعود إلى طريق الخير، ولقد ابتلاه ربه في دنياه لأنه ما زال يُحبها أما أهل الطاعة والدين فلا يعنيهم أمر الدنيا فقد زهدوا فيها، سفيان هذا جبل من العلم يُعاقب بالحرمان من الطاعة وتلك عقوبة شديدة جدًا على قلوب المؤمنين الذين عرفوا مَن هو الله

_ حَدَّثَنِي إِسْحَاقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ الطَّبَرِيُّ، قَالَ: سَمِعْتُ الْفُضَيْلَ، يَقُولُ: «إِذَا لَمْ تَقْدِرْ عَلَى قِيَامِ اللَّيْلِ وَصِيَامِ النَّهَارِ فَاعْلَمْ أَنَّكَ مَحْرُومٌ مُكَبَّلٌ كَبَّلَتْكَ خَطِيئَتُكَ» **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**

_والمكبل هو مَن أوثقت يداه وقدماه بالحديد فهل يستطيع هذا أن يتحرك؟

_وكذلك العاصي كأن في يديه وقدميه حديد فلا يستطيع الحركة وإذا ما تحرك تكون حركته بطيئة ثقيلة، فصلاته وصيامه وعبادته يؤديها بشق الأنفس وهو على مضض، لقد كبلته ذنوبه وقيدته معاصيه فأعجزته عن الحركة.

2-حرمان العلم.

وهذه أيضًا إشكالية يُعاني منها طلاب العلم، فهم يُعانون من النسيان بعد الحفظ.

قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (282)﴾[البقرة]

فإذا وجدت التقوى في القلوب فإن الله عز وجل سيُعلم عبده ويكون ذلك بتيسير أسباب العلم النافع وهذا هو المعنى المقصود في الآية، فيتم له تحصيل العلم النافع ويعرف الحق من الباطل ويزداد درجة بعد درجة

ويرتقي فيصبح له شأنٌ وقدر ويكون هذا عندما يتقي الله في أقواله وأفعاله فإذا كان العكس فإن العاقبة ستكون الحرمان

لما جلس الإمام الشافعي بين يدي مالك وقرأ عليه أعجبه ما رأى من وفور فطنته وتوقد ذكائه وكمال فهمه فقال: إني أرى الله قد ألقى على قلبك نورا فلا تطفئه بظلمة المعصية.

عندما جلس الشافعي بين يدي مالك لتلقي العلم وجد مالك منه ذكاءً وفطنة وإجابة وفقه فقال للشافعي أنه يرى أن هناك نورٌ من الله وهذه علامات تدل على أنه سيكون له شأن فنصحه بأن ينتبه حتى لا يُطفئ هذا النور بظلمة المعصية.

المعاصي تجعل صاحبها في أسفل سافلين، فالجنة في السماء السابعة أما النار فإنها في الأراضين السابعة، كذلك هو حال العبد الطائع والعاصي، فالعبد الطائع لديه عُلُو ورُقِي لأنه متصل بمعالي الأمور، يريد أن يعلو ويرتقي، أما العاصي فإنه يحوم بمعاصيه حول سفاسف الأمور والأمور السفلية مع أهل النار.

ومع المعاصي يضيع من الإنسان ثواب وفضل كبيران جدًا،

مثال ذلك: شاب صغير في السن يقول: أنا مازلت صغيرًا (17_20عامًا) وأود أن أعيش حياتي، وكأن الطائع ميت في حين أن حقيقة الأمر أن العاصي هو الميت وهذا بنص القرآن والسنة وأقوال العقلاء في كل زمان ومكان فقد اتفقوا على أن العاصي ميت وإن كان بدنه مازال حيًا، والطائع حي وإن كان بدنه مُحمَّل بالأمراض،

يقول هذا الشاب: أود أن أعيش حياتي وأفعل ما يحلو لي ثم بعد ذلك أتوب وأعود إلى الله فما زال العمر طويل

_أولًا: لا أحد منَّا يملك عمره ومَن يضمن ذلك ؟

ولو افترضنا أن عمره سيطول إلى أن يتوب ويعود إلى ربه كما يقول، ولكن السؤال ما الذي حُرِم منه خلال تلك الفترة ؟ لقد حُرِم الكثير،
فهل مَن يتوب وعنده عشرون عامًا كمَن يتوب ولديه ثلاثون أو أربعون عامًا ؟ كل يوم يمر على الإنسان وهو في معصية لابد أن يدفع ثمنه حتى لو تاب، نعم: سيتوب ويرجع وسيقبله ربه ولكن غيره يجري ويُسارع لينال الدرجات العُلا فمتى سيصل إلى ما وصل إليه غيره ؟

ما سيفوته أولًا: هو الأجر العظيم

لقوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (146)﴾ [النساء].

ثانيًا : لن يُدافع الله عنه وهو قائم على المعاصي

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (38)﴾[الحج]

يجد مَن يتكلم عنه ويسبه وينتهك عرضه وتأتيه الشرور والمصائب من كل اتجاه ولا يكون هناك دفاع من الله عنه وهو على هذه الحال من ارتكاب المعاصي، وهذا هو الخسران المبين.

ثالثًا: يخسر استغفار حملة العرش

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (7)﴾[غافر]

_ملة العرش، هم من أفضل الملائكة، عددهم ثمانية يحملون عرش الرحمن ومن حوله يستغفرون للذين آمنوا، ومَن كان في معصية فسيُحرم هذا الخير العظيم

رابعًا: يُحرم موالاة الله له

تُرى ماذا يحدث لو أن الله سبحانه وتعالى كان ولي أحدنا ؟ أي نعمة وأي فضل في الدنيا يوازي أو يُعادل أن يكون العبد من أولياء الله سبحانه، إن الله عز وجل لا يذل مَن والاه ولا يعز مَن عاداه.

قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (257)﴾[البقرة]

أما العاصي فلن يُواليه الله عز وجل فهو الخاسر

_فإذا ما كان الإنسان خاسر للأجر العظيم ودفاع الله عنه واستغفار حملة العرش وموالاة الله له فماذا سيبقى له؟

خامسًا: يخسر تثبيت الملائكة له

إن الله عز وجل يأمر الملائكة أن يُثبتون الذين آمنوا (وإن كان هناك سبب للنزول ولكن في القرآن ما يُسمى بعموم اللفظ وخصوص السبب) فهذا لفظ عام يشمل الكُل وإن كان هناك سببًا نزلت فيه الآيات

أما العاصي فهو محروم من تثبيت الملائكة له كما سبق وحُرِمَ استغفارهم له

سادسًا: يخسر العِزة

قال تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ (8)﴾ [المنافقون]

المؤمن عزيزٌ بعِز الله سبحانه مادام في طاعة، أما مَن حُرِم الطاعة فهو في ذُل، فيُسلط عليه مَن يُهينه ويُذله، حالة من الذُل لأنه خسر عِز الله له

سابعًا : يخسر معية الله لأهل الإيمان

قال تعالى: ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ (19)﴾[الأنفال]

أتدرون ما المقصود بمعية الله سبحانه ؟

الله عز وجل فوق سبع سماوات مستوٍ على عرشه أما المعية فالمقصود بها هو التأييد والنصر والسداد والتوفيق والمحبة وكل جميل وعظيم وعالي يأتي العبد مادام في معية الله، وهناك نوعان من المعية.

1- معية عامة: وهي التي تكون للعباد جميعًا فقد أحاط بهم علمًا

2- معية خاصة: فهي تكون لعباده المؤمنين إذا كانوا في طاعة وإقبال عليه وتاركين للمعاصي وسُبل الشياطين وكل ما يُغضب الله، لقد نالوا التأييد والسداد والتوفيق والرشاد.

ثامنًا: حرمان الرفعة في الدنيا والآخرة

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (11)﴾[المجادلة]

إذن الرفعة في الدنيا والآخرة تأتي بطاعة الله، والعكس صحيح لأن العاصي المُذنب سيُحرم هذه الرفعة وسيكون في نزول حتى لو كان يعتقد أنه في علو.

تاسعًا: الأمن من الخوف عند شدة الخوف

قال تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (48)﴾[الأنعام]

_فبالإيمان والصلاح لا يكون هناك خوف على المؤمن،

_أحيانًا : نرى أمثلة من الناس يكون عندهم شيء من الرُعب، فالوسواس والقلق لا يتركهم على الأبناء، لو سُمِعَ صوتًا يعتقد أن هناك لصوص جاءوا ليسرقوا البيت، أو العفاريت ووسوستها والرعب منها، فالخوف أوجد الاضطراب في القلب، هذا النوع من القلوب مَلِئَ بالذنوب ولو أنه مُلِيء بالإيمان لأمنه الله عز وجل من الخوف ولما شعر بهذه الاضطرابات

_كل هذه نِعَمْ حُرِمَ منها العاصي، وهل في الدنيا معصية يجد العاصي فيها متعة تساوي أن يحرم نفسه من كل هذه النِّعَمْ لأجلها؟

_مثال: لو أن شخصًا ذهب لشراء شيء معين وهو يعلم مسبقًا ثمن هذا الشيء ولكن عندما سأل البائع عن ثمنه أخبره أن ثمنه أضعاف أضعاف ما كان فما الذي سيفعله ؟ سيتهم البائع بأنه يُحاول سرقته

_وهذا هو ما يفعله الشيطان مع الإنسان يُحاول سرقته وكذلك الدنيا والنفس وهو يدفع ولا ينتبه لذلك لماذا؟ لأن ثمن كل يوم يمر على الإنسان وهو بعيد عن الله ومُتقلِّب في المعاصي هو ثمن غالي جدًا لا يُعادل ما حصَّله من متع المعاصي، ومَن كان لديه ذرة من عقل لا يفعل ذلك، كل يوم يمر بغير زيادة من (طاعة_ذكر_قرب من الله_أعمال قلوب_أعمال جوارح) فهو كالذي دفع الثمن المُضاعف في شيء لا يستحق إلا القليل.

7- إلف المعصية يؤدي إلى المجاهرة بها

فالمعصية بعد المعصية والذنب بعد الذنب يؤدي إلى أن يُجاهر الإنسان بالمعاصي والذنوب ولا إشكال لديه في ذلك وهذا الأمر أصبح اليوم واضح جدًا

مثال : كان الناس فيما مضى لديهم شيء من الحياء فكان الشخص إذا ذهب إلى مصلحة حكومية لإنجاز عملٍ ما أو أداء مصلحة كان الموظف يريد أن يأخذ الرشوة ولكنه كان يُواري في طلبها ويأخذها على استحياء أما اليوم فقد أصبح الموظف يطلب صراحةً وقد يشترط مبلغ معين مقابل إنجاز عمله، فمن كثرة ارتكاب المعاصي تولد لديه شيء وهو إلف المعصية فيأكل أموال الناس بالباطل ويرتشي ولا عيب في ذلك أو حرام

عَنْ ثَوْبَانَ قَالَ: "لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الرَّاشِيَ وَالْمُرْتَشِيَ وَالرَّائِشَ» يَعْنِي: الَّذِي يَمْشِي بَيْنَهُمَا" **مسند أحمد(22399)،سنن أبي داود(3580) سنن الترمذي(1336)حكم الألباني صحيح**

واللعن من الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعني اللعن من الله عز وجل

عَنْ سَالِمِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ، يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: " كُلُّ أُمَّتِي مُعَافًى إِلَّا المُجَاهِرِينَ، وَإِنَّ مِنَ المُجَاهَرَةِ أَنْ يَعْمَلَ الرَّجُلُ بِاللَّيْلِ عَمَلًا، ثُمَّ يُصْبِحَ وَقَدْ سَتَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ، فَيَقُولَ: يَا فُلاَنُ، عَمِلْتُ البَارِحَةَ كَذَا وَكَذَا، وَقَدْ بَاتَ يَسْتُرُهُ رَبُّهُ، وَيُصْبِحُ يَكْشِفُ سِتْرَ اللَّهِ عَنْهُ " **أخرجه البخاري(6069)،أخرجه مسلم(2990)**

ارتكب شخصٌ معصية ما (زنا_سرق_ أي شيء) فماذا يفعل بعد أن ستره الله وهو يعصيه؟ إذا أصبح الصباح كلم هذا وحكى لهذا وتفاخر بالذنب وجاهر به أمام الآخرين، هذا النوع لا يُعافيه ربه فقد كان عليه حين ستره الله أن يستر على نفسه

8- المعصية تُوَلِد المعصية، وجزاء المعصية معصيةٌ تليها

قال تعالى: ﴿جَزَاءً وِفَاقًا (26)﴾[النبأ]

فإذا ما أذنب العبد ذنبًا فسيأتي خلفه ذنبًا آخر، ارتكب معصية فستليها معصية أخرى وهو لا يدري، ولذلك علينا أن نُكثِر من الاستغفار فربما يذنب أحدنا ذنبًا وهو غير مُدرك أنه أذنب فيأتي الاستغفار ليمنع الذنب الذي كان سيأتي بعده (فإذا استغفر ونزع عاد قلبه مرة أخرى كما كان)

9-العاصي هَيِّنْ على ربه

هذه الجزئية تصعُب جدًا على القلب الحي فهي عليه كالطعن بسكين، فالإنسان حين يستشعر أنه حال المعصية هو هين على الله تُرى ماذا سيكون حاله ؟

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (18)﴾[الحج]

فالعاصي حال معصيته هو هين على ربه أي لا قيمة له عند الملك وهذا الأمر صعب جدًا ولكن لو كانوا يفقهون.

10- نسيان الله لعبده العاصي

قال تعالى: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا (64)﴾[مريم]

النسيان نوعان:

1- أحدهما يعني الترك

2- والآخر يعني النسيان الذهني وهذا منفي عن الله عز وجل لأنه صفة نقص.

_ المقصود بالنسيان هنا هو: أن يتركه ربه ويُخلي بينه وبين نفسه ويكله إلى نفسه ويا ويل مَن يَكِلَهُ ربه إلى نفسه فسيكون في عذاب ما بعده عذاب وشقاء ما بعده شقاء وتتوالى عليه المصائب والابتلاءات والكوارث شعر أم لم يشعُر

قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (19)﴾[الحشر].

11- نسيان العبد العاصي لنفسه

فمَن ينساه ربه يتركه فلا ولاية ولا دفاع عنه ولا يأمر الملائكة أن تستغفر له ويُخلي بينه وبين شيطانه

تخيلوا: لو أن شخص يسير في أحد الطرق فخرج عليه عدد من الأشرار ما بين لِص وقاطع الطريق وقاتل وكلهم يجرون ورائه لينالوا منه وهناك قصر (حِصن حصين) فيه ملك ومعه حاشيته فإن لم يهرب هذا الشخص ويحتمي خلف جدران هذا القصر فما الذي سيحدث له؟ سيهلك ولابد لأنه لو أفلت من أحدهم فلن يفلت من الآخرين

حين ينسى الله عبده فإنه يُخلي بينه وبين شيطانه بل شياطين الإنس والجن فيتسلطون عليه ويكون في حالة من التخبُط والحيرة (رؤية الباطل حقًا والحق باطلًا) نتيجة نسيان الرب للعبد، ونسيان العبد لنفسه

ونسيان العبد لنفسه يعني : إضاعة نصيبها وميراثها من الجنة، فيوم بعد يوم وسنة بعد أخرى والعمر يضيع وفجأة يجد أن حظ نفسه من الجنة صفر فلم تُعطَ هذه النفس نصيبها حتى إذا ما وصلت إلى الآخرة وجدت الجنة تنتظرها

أرأيتم كيف تكون النتيجة إذا ما نسي العبد نفسه وحمَّلها بالمعاصي؟

سيكون هذا هو الحال فإما أن تكون ولاية شيطان وإما تكون ولاية الرحمن، _فإن لم يتول الرحمن عبده برحمته وحفظه ويرعاه ويُكرمه ويجعله في معيته فإن الشيطان سيتولاه ولابد، وعلى العبد أن يختار لنفسه إما أن يتولاه الرحمن وإما يتولاه الشيطان،

- أما عقوبات الدنيا للعاصي

1- الذنوب تُورِث الذُل

فالعاصي ذليل وإن كان الظاهر أنه في عِز

_قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ (10)﴾[فاطر]

فمَن أراد العِز فإن العِز كله لله سبحانه، ومَن وقع في المعاصي فإن العِز يُنزع منه لأن الله قد خلى بينه وبين شيطانه،

وَكَانَ مِنْ دُعَاءِ بَعْضِ السَّلَفِ: اللَّهُمَّ أَعِزَّنِي بِطَاعَتِكَ وَلَا تُذِلَّنِي بِمَعْصِيَتِكَ.

قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: إِنَّهُمْ وَإِنْ طَقْطَقَتْ بِهِمُ الْبِغَالُ، وَهَمْلَجَتْ بِهِمُ الْبَرَاذِينُ، إِنَّ ذُلَّ الْمَعْصِيَةِ لَا يُفَارِقُ قُلُوبَهُمْ، أَبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُذِلَّ مَنْ عَصَاهُ. (**الدواء الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي**)

طَقْطَقَتْ: أي تحركت بسرعة

وَهَمْلَجَتْ بهم البراذين: أي سارعت، والبراذين: نوع من أنواع الدواب

أَبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُذِلَّ مَنْ عَصَاهُ: إن العاصي مذلول ومهما أوتي من عِز ومال وجاه وتجمع الناس حوله إلا أنه في ذُل (ذل للحفاظ على الجمال_ذل لتجميع المال_ ذل لتحقيق المكانة والمنزلة) كل هذا عِز ولكنه عِزٌ ظاهر باطل، فالعز والذل محلهما القلب، وهؤلاء العُصاة قلوبهم ذليلة لأن منهم مَن هي مذلولة لجمالها، ومنهم مَن هو مذلول للمنصب، ومنهم مَن هو مذلول للزوجة أو الدنيا، لن يكون هناك عِز والإنسان ذليل لهذه الأشياء، العِز لا يكون إلا مع الله.

2- المعاصي تمحق البركة

وهذا واضح وملحوظ جدًا، فالمعاصي تمحق بركة (العمر_الرزق_العلم_العمل_الطاعة) فيتعلم الإنسان ومع الذنوب تُمحى البركة فيحفظ وينسى، يتعلم ولا يجد ثمرة في تقدم ولا في تحصيل بل أنه يتراجع.

الرزق ليس فيه بركة: فالعائد ألوف وملايين والبركة لا توجد فيدور حول نفسه من الحيرة وعدم راحة البال.

العمر ليس فيه بركة: فتتجاوز الأعمار الخمسين والستين ولا يعرف معنى آية من كتاب الله لو سُئل عنها، لا يعرف فقه الطهارة، ولا يعرف كيف يُصلي بطريقة صحيحة، الحج العمرة، ماذا يعرف عن دينه وسنة نبيه

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا شيء، تلك هي البركة المنزوعة من الأعمار فالأعمار طويلة والأعمال حقيرة.

لقد توفي الإمام النووي : وعمره ستة وأربعون عامًا ولديه من المؤلفات العشرات وقد انتفع بها العالم إلى يومنا هذا وسيظل هذا النفع إلى قيام الساعة ويوم القيامة يُحشر مع العلماء الأكابر الذين ملئوا الدنيا نورًا، وغيره من العلماء الذين نالوا البركة في أعمارهم وعاش علمهم إلى الآن(تلك بركة الأعمار).

نُزِعت البركة من العمل أيضًا: فقد تكون الأعمال كثيرة ولكن لا يوجد ارتقاء لعدم قبول الأعمال نتيجة الذنوب.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (96)﴾[الأعراف]

يقول سبحانه بركات وليست بركة واحدة، فما هي البركات ؟

البركات هي: كثرة الخير_ثباته_نماءه_زيادته

فتأتي البركة في الرزق_الأبناء_الأبدان_الأعمال_العلم_العمر، كل جزئية في حياة الإنسان ستكون مباركة للحد الذي يُصبح فيه الشخص نفسه مباركًا

فما معنى هذا؟ أي أن كل عمل سيعمله سيكون فيه بركة، فإذا جلس مع الناس يكون له بركة فيؤثر في الآخرين (تذكير بالله_الآخر بدأ يُصلي _ وغيره التزم _وآخر وصل رحمه) فالأعمال تزيد والعمر سنواته مازالت قليلة تلك بركة الطاعة والبعد عن المعصية.

3- بالمعاصي يُحرم العبد الرزق

قال تعالى: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (2) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا (3)﴾[الطلاق]

وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ: فما هو المفهوم المخالف؟ فإن لم توجد التقوى فلن يوجد المخرج وكذلك لن يُرزق العبد

فما المقصود بانعدام المخرج ؟ كأن يكون لدى الإنسان مشكلة ولا يجد لها حلًا فتُكدر عليه صفو حياته وتتسبب في انشغال القلب والعقل بها

المؤمن لديه مخرج فقد يُبتلى بولد عاق ولكن الله أنزل عليه سكينة فرضي، لديه ضيق في الرزق ولكنه سعيد وراضٍ برزق الله له، أما العاصي فإن الابتلاء يأتيه ولا يجد له مخرج

انتبهوا: فعدم وجود مخرج للمشكلة يجعل العقل في حيرة دائمة وبالتالي لن يتسنى له القيام بالطاعات كما أنه لن يشعر بأي لذة لدنيا أو لدين فالحياة مُكدرة، كل هذا نتيجة الذنوب

إذن على المرء إذا ما قابل مشكلة أو ضيق وليس لها مخرج بمقاييس العقل فليقل لنفسه ومَن يتقِ الله يجعل له مخرج ولأن ملك الملوك لا يُعجزه شيء في الأرض ولا في السماء فسيجعل له مخرج، عليه فقط أن يُحقق التقوى ومتى فعل ذلك فسيجد المخرج فهذا هو كلام الله.

4- من آثار الذنوب والمعاصي تعسُر الأمور

المعاصي جعلت الأمور معقدة بشكل ظاهر واضح

وأوضح مثل على ذلك: حال الشباب والفتيات الآن، فالفتيات يبذلن أقصى ما عندهن لإرضاء الشباب إلا أنهم لا يرضون (خلعن الحجاب غيرن خلق الله_يخرجن كاسيات عاريات) أشياء كثيرة تُرتكب وهي تُغضب الله ويأبى الله إلا أن يُذِل مَن عصاه، وقلب العبد بيد الرب ولن يُنال ما عند الله بمعصيته.

يُقدم الشاب على عمل فلا تسير الأمور، يعمل مشروع فإذا به يفشل، لا يوجد تيسير

قال تعالى: ﴿وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا (4)﴾[الطلاق]

والمفهوم المخالف هنا أيضًا: أن مَن لا يتقي الله فستتعسر أموره

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك